تفسير سورة الدخان

دراسة تحليلية

إعـداد
د / نجاة محمد حسن بحيرى
مدرس التفسير وعلوم القرآن
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر القاهرة

المقدمة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ (١) ، لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يتطرق إليه تحريف ولا تبديل ، فقد تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٢) وأصلي وأسلم على من أرسله الله رحمة مهداة، ونعمة مسداة سيدنا محمد المؤيد بالقرآن معجزة عظمى وآية باقية على وجه الزمان وعلى آله وأصحابه الطيبين المهتدين الذين اهتموا بالقرآن اهتمامًا فائقًا من حيث تفسيره وتدبره وإيضاح غامضه وبيان محكمه ومتشابهه والكشف عن أسراره وبلاغته وذكر عجائبه وبيان حلاله وحرامه واستنباط أحكامه.

وبعـــــد :

فإن شرف العلم بشرف موضوعه وشرف معلومه وغايته وشدة الاحتياج إليه وعلم التفسير حائز لجميعها ، فإن موضوعه كلام الله تعالى ، لكونه جامعًا للعقائد الحقة ، والأحكام الشرعية وغيرها ، وغاية الاعتصام بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والوصول إلى سعادة الدارين ، وهو رئيس العلوم الدينية لكونها مأخوذة من الكتاب وهي تحتاج من حيث الثبوت أو من حيث الاعتداد إلى علم التفسير .

لهذا اهتم كثير من العلماء بهذا العلم من لدن الرسول ﷺ وأصحابه وتابعيهم إلى وقتنا هذا .

وهذا العمل الذي أقوم به هو تفسير سورة الدخان لما لها من الاهتمام والثناء على القرآن وأنه نزل في ليلة مباركة ومن الحديث عن الأمم السابقة وهداية الناس إلى طريق الحق .

---

(١) سورة الكهف آية ١ .

(٢) سورة الحجر آية ٩ .

وقد اتبعت في هذا البحث الخطوات التالية :

١ ــ التعريف بالسورة وبيان مكيتها أو مدنيتها وعدد آياتها .

٢ ــ بيان موضوعات السورة الكريمة .

٣ ــ عنونت لكل مجموعة من الآيات بعنوان مناسب لها حتى يسهل على القارئ معرفة موضوعات الآيات المتناولة بالتفسير .

٤ ــ تفسير الآيات تفسير تحليليًا وسرت فيه على النحو التالي .

أ ــ ذكر أسباب النزول ، إذا كان للآية سبب نزول .

ب ــ ذكر مناسبة الآيات لما قبلها .

جـ ــ ذكر المعاني اللغوية للكلمات مع بيان المراد في اللفظ حسب وضعه في الآية .

د ــ التعرض للأعراب حيثما احتاج المقام إلى ذلك .

هـ ــ بيان الصور البيانية لبعض الآيات لإبراز المعاني البلاغية للنص القرآني.

٥ ــ تفسير الآيات تفسيراً إجماليًا بذكر ما تضمنته الآيات من أحكام وآداب وأهداف .

وأرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت فيما قمت به ، وأقدم اعتذاري عن كل تقصير، وأتمنى من الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجه الكريم .

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ "سورة البقرة : ٢٨٦ ".

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

تفسير سورة الدخان

" بين يدي السورة "

مكية السورة ومدنيتها وعدد آياتها :

سورة الدخان من السور المكية باتفاق إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا ﴾ (١) وعدد آياتها تسع وخمسون آية في المصحف الكوفي وسبع وخمسون في البصري ، وست وخمسون في غيرها كان نزولها بعد سورة الزخرف .

مناسبة السورة لما قبلها :

قال الألوسي : ووجه مناسبتها لما قبلها أنه عز وجل ختم ما قبل بالوعيد والتهديد وافتتح هذه بشيء من الإنذار الشديد وذكر سبحانه هناك قول الرسول ﷺ ﴿ يا رَبِ إِنَّ هَؤُلاء قَوْمٌ لا يُؤْمِنُون ﴾ (٢) وهنا نظيره فيما حكى عن أخيه موسى عليهما الصلاة والسلام بقوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ (٣) ، وأيضًا ذكر فيما تقدم ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ ﴾ (٤) وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام : ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ (٥) وهو قريب من قريب إلى غير ذلك ، وهي إحدى النظائر التي كان يصلي بهن رسول الله ﷺ (٦) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦ /١٢٣ ط دار الحديث ، الكشاف ١٧٢/٤ ، روح المعاني ٢٥ /١١٠ . والآية من سورة الدخان آية ١٥ .

(٢) سورة الزخرف آية ٨٨ .

(٣) سورة الدخان آية ٢٢ .

(٤) سورة الزخرف آية ٨٩ .

(٥) سورة الدخان آية ٢٠ ، ٢١ .

(٦) روح المعاني /١١/٢٠٥ .

وقال البقاعي : " لما ختمت الزخرف ببشارة باطنه ونذاره ظاهره وكان ما بشر به سبحانه من علم العرب وسلامتهم من غوائل ما كانوا فيه مستبعدًا . افتتح هذا بمثل ذلك مقسمًا عليه فقال : " والكتاب" أي الجامع لكل خير "المبين" أي المبين في نفسه الموضح لما تقدم من دقيق البشارة لأهل الصفاء والبصارة واصح النذارة بصريح العبارة وغير ذلك من كل ما يراد منه " (١).

سبب تسمية السورة بهذا الاسم :

سميت " بسورة الدخان " لأن الله تعالى جعله آية لتخويف الكفار حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء الرسول ﷺ (٢) .

مقاصد السورة :

١ ــ افتتحت السورة بالثناء على القرآن وأنه قد أنزله في ليلة مباركة.

٢ ــ تحدثت عن جانب العقوبات الدنيوية التي عاقب الله بها كفار قريش وذكرت ما تضرعوا به إلى الله لكن كشف عنهم ما نزل بهم من بلاء فلما كشفه ــ تعالى ــ عنهم عادوا إلى كفرهم ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ .

٣ــ ثم ساقت جانبا من قصة فرعون مع موسى فبينت أن موسى عليه السلام دعا فرعون وقومه إلى وحدانية الله ،ولكنهم أصروا على كفرهم فكانت عاقبتهم الإغراق في البحر دون أن يحزن لهلاكهم أحد وأنهم قد تركوا من خلفهم ما تركوا من جنات ونعيم : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ .

٤ ــ وبعد أن هددت السورة الكريمة مشركي مكة على أقوالهم الباطلة في

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٨ /١ .

(٣) صفوة التفاسير ٥/ ١٣٣٢ .

شأن البعث وردت عليهم بما يدحض حجتهم اتبعت ذلك ببيان سوء عاقبة الكافرين وحسن عاقبة المؤمنين وختمت بتسلية الرسول ﷺ عما أصابه من أذى ووعدته بالنصر على أعدائه قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ .

٥ ــ هذا والمتدبر في هذه السورة الكريمة يراها تمتاز مع قصر الآيات بأسلوبها الذي تبرز فيه ألوانًا متعددة من تهديد المشركين تارة عن طريق تذكيرهم بالقحط الذي نزل بهم ، وتارة عن طريق ما حل بالمكذبين من قبلهم وتارة عن طريق ما ينظر من عذاب مهين إذا ما استمروا على كفرهم ، كما نراها تثني على القرآن بألوان متعددة من الثناء وتبشر المتقين ببشارات متنوعة وتطوف بالنفس الإنسانية في عوالم شتى لتهديها إلى الصراط المستقيم ولترشدها إلى طريق الحق .

* * *

القرآن الكريم ونزوله في ليلة مباركة

قال تعالى : ﴿ حم • وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ • إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ • فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ • أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ • رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ • رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ • لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ • بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾[1]

قوله تعالى : ﴿ حم ﴾

آراء العلماء في تفسير الحروف المقطعة :

* وقع خلاف بين العلماء في المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ويمكن إجمال خلافهم في رأيين:

الرأي الأول : يرى أصحابه أن المعنى المقصود منها غير معروف فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه وإلى هذا الرأي ذهب ابن عباس – في إحدى رواياته – كما ذهب إليه الشعبي [2] وسفيان الثوري [3] وغيرهم من العلماء ، فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال : أن لكل كتاب

(١) سورة الدخان ١ : ٩ .

(٢) الشعبي:هو عامر بن شراحيل بن عبد وقيل عامر بن عبد الله بن شراحيل الحميري أبو عمرو الكوفي . قال مكحول : ما رأيت أفقه منه وقال ابن عيينة : كانت الناس تقول : بحر الصحابة ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه والثوري في زمانه ، وقال العجلي : سمع من مائتي وأربعين من الصحابة ومرسل الشعبي صحيح لا يكاد يرسل إلا صحيحًا، وقال ابن حجر : ثقة مشهور فقيه فاضل . توفي ١٠٤هـ " تهذيب التهذيب ٥/ ٥٩ ، معرفة الثقات ٢/ ١٢ ".

(٣) سفيان الثوري: هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي. قال شعبة وابن عيينة ويحيى بن معين وغير واحد : سفيان أمير المؤمنين في الحديث ، وقال الخطيب : كان إمام من أئمة المسلمين وعلم من أعلام الدين مجمعًا على إمامته بحيث يستغني عن تزكيته مع الإتقان والحفظ والمعرفة والضبط والورع والزهد، توفي سنة ١٦١هـ – تذكرة الحفاظ ١/٢٠٣، ٢٠٧ .

سرًا وأن سر هذا الكتاب فواتح السور، ويروي عن ابن عباس أنه قال : عجزت العلماء عن إدراكها . وعن علي رضي الله عنه – أنه قال : أن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي ، وفي رواية أخرى عن الشعبي أنه قال : " سر الله فلا تطلبوه " .

ومن الاعتراضات التي وجهت إلى هذا الرأي أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس لأنه من المتشابه ، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثله كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الأفهام عنها عند كل الناس فالرسول ﷺ كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ، ولكن الذي ننفيه أن يكون الناس جميعًا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة في أوائل بعض السور .

الرأي الثاني : يرى أصحابه أن المعنى المقصود منها معلوم وأنها ليست من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ، وأصحاب هذا الرأي قد اختلفوا فيما بينهم في تعين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة أهمها ما يأتي :

١ – أن هذه الحروف أسماء للسور بدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها كسورة "ص" وسورة "يس" ،ولا يخلو هذا القول من الضعف لأن كثيرًا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح والغرض من التسمية رفع الاشتباه .

٢ – وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى .

٣ – وقيل أنها حروف مقطعة ، بعضها من أسماء الله تعالى وبعضها من صفاته فمثلاً "ألم" أصلها " أنا الله أعلم "

٤ – وقيل أنها اسم الله الأعظم إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من

مقـال والتي أوصلها السيوطي فـي الإتقان إلى أكثر من عشرين قول .

٥ ـ ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال أن هذه الحروف المقطعـة قـد وردت في افتتاح بعض السور للأشعار بان هذا القرآن الذي تحدى الله به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التي يعرفونها ويقدرون على تـأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله فذلك لبلوغه فـي الفـصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة ، وفضلاً عن ذلـك فإن تصدير السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر، لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة في مجاري كلامهم ، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا مـا يـراد منها فيستمعوا حِكمًا وحججًا قد تكون سببًا في هدايتهم واستجابتهم للحق " [١] .

وقد رجح هذا الرأي الزمخشري فقال :" فإن قلت : فهلا عُدِّدت بأجمعها في أول القرآن ومالها جاءت مفرقة على السور ؟ قلت : لأن إعادة التنبيه على أن المتحدي به مؤلف منها لا غير وتجديده في غير موضع واحد أوصل إلى الغرض وأقوله في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة ، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المقرر في النفوس وتقريره " [٢] .

وقال ابن كثير :" وقال آخرون : بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل الـسور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها . ثم قال : قلت : ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيـان إعجـازه

(١) الوسيط ١/ ٣٨ أ. د / محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر رحمه الله .
(٢) الكشاف ١/ ١٠٤ .

وعظمته وهذا معلوم بالاستقرار وهو الواقع في تسع وعشرين سورة " [١] . وأنـا أرجح هذا الرأي لما فيه من القوة .

قوله تعالى : ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

قال الفخر الرازي [٢] في المسألة الثالثة :" يجوز أن يكون المراد بالكتاب هنـا الكتب المتقدمة التي أنزلها الله على أنبيائه،كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [٣] ويجـوز أن يكـون المـراد اللـوح المحفوظ ، كما قال تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [٤] ، وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا ﴾ [٥] ويجوز أن يكون المراد به القرآن ، وبهذا التقدير فقد اقسم بالقرآن على أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة ، وهذا النـوع مـن الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن " .

وقال في المسألة الرابعة :" المبين" هو المشتمل على بيان ما يحتاجه الناس فـي دينهم ودنياهم ، فوصفه بكونه مبينًا وإن كانت حقيقة الإبانة لله . لأجل أن الإبانـة حصلت به كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [٦] ، وقـال أيضًا : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ [٧] فوصفه بالتكلم إذ كان غاية في الإبانة ، فكأنه ذو لسان ينطق ، والمعنى فيه المبالغة في وصفه بهذا المعنى"[٨] .

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٨ .
(٢) مفاتيح الغيب للرازي ٢٧ / ٢٠٣ .
(٣) سورة الحديد آية : ٢٥ .
(٤) سورة الرعد آية : ٣٩ .
(٥) سورة الزخرف آية : ٤ .
(٦) سورة النمل : ٧٦ .
(٧) سورة الروم آية : ٣٥ .
(٨) مفاتيح الغيب ٢٧ / ٢٠٣ .

أرباب الشقاوات ، فعلى هذا لا شيء وإلا والقرآن أعظم قدرًا وأعلى ذكرًا وأعظم منصبًا منه فلو كان نزوله إنما وقع في ليلة أخرى سوى ليلة القدر ، لكانت ليلة القدر هي هذه الثانية لا الأولى وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر التي وقعت في رمضان ، علمنا أن القرآن إنما أنزل في تلك الليلة ، وأما القائلون بأن المراد في الليلة المباركة المذكورة في الآية هي ليلة النصف من شعبان فما رأيت لهم فيه دليلاً يعول عليه ، وإنما قنعوا فيه بأن نقلوه عن بعض الناس ، فإن صح عن رسول الله ﷺ فيه كلام فلا مزيد عليه، وإلا فالحق هو الأول [١] ، ثم ذكر بعض أدلتهم وفيها أحاديث ضعيفة جدًا فلا داعي لذكرها .

وقال ابن العربي[٢] "وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر، ومنهم من

قال : إنها ليلة النصف من شعبان ، وهو باطل ؛ لأن الله قال في كتابه الصادق القاطع ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ فنص على أن ميقات نزوله رمضان ثم عين من زمانه الليل ها هنا بقوله : ﴿ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفرية على الله ، وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يعول عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها ".

وقال ابن كثير : يقول الله مخبرًا عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة وهي ليلة القدر كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ، وكان ذلك شهر رمضان ، ثم قال : ومن قال أنها ليلة النصف من شعبان كما روي عكرمة فقد أبعد النجعة فإن نص القرآن أنها في رمضان والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح عن الليث عن عقيل عن الزهري أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الخنس قال :" إن رسول الله ﷺ قال :" تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٧ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ .
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩ .

ويولد له وقد أخرج اسمه في الموتى ، فهو حديث مرسل ومثله لا يعارض النصوص " [١] .

وذكر الطبري الرأيين السابقين ثم قال :" وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : ذلك ليلة القدر [٢] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أي : معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعًا لتقوم حجة الله على عباده [٣] .

قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ قال القرطبي : قال ابن عباس : يحكم الله أمر الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق ، وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرهم ، وقيل : إلا الشقاء والسعادة ، فإنهما لا يتغيران .

قال المهدوى : ومعنى هذا القول أمر الله عز وجل الملائكة بما يكون في ذلك العام ولم يزل ذلك في علمه عز وجل " [٤] .

وقال الفخر الرازي : " أما قوله : ﴿ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ فالحكيم معناه ، ذو الحكمة وذلك لأن تخصيص الله تعالى كل أحد بحالة معينة من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة يدل على حكمة بالغة لله تعالى ، فلما كانت تلك الأفعال والأقضية دالة على حكمة فاعلها وصفت بكونها حكيمة ، وهذا من الإسناد المجازي ، لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف الأمر به مجاز " [٥] .

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٧ .
(٢) جامع البيان للطبري ٢٥ /١٢٥ ط دار الفكر .
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٧ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٦ /١٢٤ .
(٥) تفسير الفخر الرازي ٢٧/٢٠٦ . .

قوله تعالى : ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ﴾ قال الزمخشري : نصب على الاختصاص جعل كل أمر جزلاً فخما بأن وصفه بالحكيم ثم زاده جزالة ، وكسبه فخامة ؛ بأن قال : أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلاً من عندنا ، كائنًا من لدنا وكما قتضاه علمنا وتدبرنا ، ويجوز أن يراد به الأمر الذي هو ضد النهي ، ثم إما أن يوضع موضع فرقانًا الذي هو مصدر يفرق ؛ لأن معنى الأمر والفرقان واحد ، ومن حيث إنه إذا حكم بالشيء وكتبه فقد أمر به وأوجبه ، أو يكون حالاً من أحد الضميرين في أنزلناه ، إما من ضمير الفاعل أى أنزلناه أمرين أمرًا ، أو من ضمير المفعول أي أنزلناه في حال كونه أمرًا من عندنا بما يجب أن يفعل " (١) .

﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي إلى الناس رسولا يتلوا عليهم آيات الله مبينات، فان الحاجة كانت ماسة إليه لهذا قال تعالى ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي الذي أنزل القرآن هو رب السماوات والارض وخالقهما ومالكهما وما فيهما

﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم متحققين؟

قوله تعالى : ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾

قال القرطبي : " أي هو خالق العالم فلا يجوز أن يشرك به غيره ، ممن لا يقدر على خلق شيء ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي يحي الأموات ويميت الأحياء ﴿لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي مالكم ومالك من تقدم منكم واتقوا تكذيب محمد لئلا ينزل بكم العذاب .

قوله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾

أي ليسوا على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم : إن الله

(١) الكشاف ٤/ ١٧٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٣٨/٤ .

خالقهم ، وإنما يقولنه لتقليد آبائهم من غير علم فهم في شك . وإن توهموا أنهم مؤمنون فهم يلعبون في دينهم بما يعن لهم من غير حجة . وقيل : ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ يضيفون إلى النبي الإفتراء استهزاء ، ويقال لمن أعرض عن المواعظ لاعب ، وهو كالصبي الذي يلعب فيفعل ما لا يدري عاقبته"(١) .

وقال الشيخ زاده : " إلتفت من الخطاب إلى الغيبه فقال : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ تحقيرا لشأنهم وابعادا لهم من موقف الخطاب لكونهم من أهل الشك والإمتراء ، وكون أفعالهم الهزء واللعب لعدم إلتفاتهم إلى البراهين القاطعة وعدم تمييزهم بين الحق والباطل والضار والنافع "(٢).

المعنى الإجمالي

أقسم الله تعالى بالقرآن البيِّن الواضح الفارق بين طريق الهدى والضلال البيّن في إعجازه الواضح في أحكامه ، وأن الله أنزله في ليلة فاضلة كريمة هي ليلة القدر لينذر به الخلق جميعًا تحذيرًا لهم من العقاب ولإقامة الحجة عليهم ، وفي هذه الليلة المباركة يفصل الله ويبيّن كل أمر محكم من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم فلا يُبدَّل ولا يُغيَّر ، ولقد أرسل الله الرسل إلى البشر لهدايتهم وإرشادهم إلى طريق الحق رحمة ورأفة بهم ، وأنه سبحانه لا رب غيره ولا معبود سواه ؛ لأنه المتصف بصفات الجلال والكمال يحي الأموات ويميت الأحياء وهو الخالق لكل شيء ، ولكن الكفار في شك من أمر البعث فهم يلعبون ويسخرون .

ما يستخلص من الآيات :

١ ــ أقسم الله بالقرآن البين الواضح في إعجازه وهدايته .

٢ ــ أنزل الله القرآن الكريم في ليلة مباركة هي ليلة القدر .

١ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢٨/١٦ .

٢ - حاشية الشيخ زاده على البيضادي ٣١١/٣ .

٣ ــ في الليلة المباركة يفصل الله ويبين كل أمر محكم من أحوال العباد .

٤ ــ أرسل الله الرسل إلى الناس مبشرين ومنذرين .

٥ ــ الله سبحانه المعبود بحق لا إله غيره المتصف بصفات الجلال والكمال ويحي ويميت وهو على كل شيء قدير ولكن الكفار في شك من أمر البعث فهم يلعبون .

• • •

معاقبة مشركي قريش والتضرع بكشف العذاب

قال تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (١)

سبب نزول الآيات :

عن ابن مسعود قال : إن قريشًا لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ فأُتى الرسول ﷺ فقيل يا رسول الله : استسق لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى فسقوا فنزلت : ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (٢) .

مناسبة الآيات لما قبلها :

لما بيَّن أن شأنهم الحماقة والطغيان التفت إلى حبيبه ﷺ تسلية له وإقناطًا من إيمانهم فقال:﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (٣).

معاني الكلمات :

فارتقب : انتظر .

---

(١) سورة الدخان الآيات : ١٠ : ١٦ .

(٢) فتح الباري كتاب التفسير ٨/ ٤٣٤، ٤٣٥ .

(٣) حاشية الشيخ زادة على البيضاوي ٣/ ٣١١ .

يغشى : يغطي ويحيط .

اكشف عنا العذاب : ارفع عنا العذاب .

ثم تولوا : أي اعرضوا عنه .

إنكم عائدون : أي تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان **نبطش البطشة الكبرى** : نبطش أي نأخذ بقوة وعنف والبطشة الكبرى يوم بدر وقيل يوم القيامة وقال ابن كثير : "الظاهر ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضًا"(١).

الشرح التحليلي :

قال تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي انتظر يا محمد عذابهم يوم تأتي السماء بدخان كثيف بيِّن واضح يراه كل أحد . قال القرطبي(٢): وفي الدخان أقوال ثلاثة :

القول الأول : أنه من أشراط الساعة لم يجيء بعد وأنه يمكث في الأرض أربعين يومًا يملأ ما بين السماء والأرض ، فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل من أفواههم فيثقب مسامعهم ويضيق أنفاسهم ، وهو من آثار جهنم يوم القيامة ، وممن قال أن الدخان لم يأت بعد : على وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وزيد بن على والحسن وغيرهم .

وفي صحيح مسلم عن ابن الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال :" ما تذكرون " ؟ قالوا نذكر الساعة ، قال : أنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر : الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٤٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٢٨/١٦ ، ١٢٩ .

خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم " (١) .

وقال ابن جرير حدثني يعقوب ، حدثنا ابن عليه عن ابن جريج عن عبد الله بن أبي مليكة قال : غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت : قلت لِمَ ؟ قال : قالوا طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق ، فما نمت حتى أصبحت وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن ابن عمر عن سفيان عن عبد الله بن أبي يزيد عن عبد الله بن أبي مليكة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فذكره (٢).

القول الثاني : أن الدخان ما أصاب قريش من الجوع بدعاء النبي ﷺ حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانًا ؛ قاله ابن مسعود قال : وقد كشفه الله عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم .

ثم ذكر الحديث الذي رواه البخاري وذكرناه في أسباب النزول .

وقال أبو عبيدة : " سمعت ابن عوف يقول قد مضي الدخان وزعم غيره أن الدخان هو الجدب والسنون التي دعا النبي ﷺ فيها على مضر " (٣) .

القول الثالث : أنه يوم فتح مكة لما حجبت السماء الغبرة قاله عبد الرحمن الأعرج ، وقد علّق ابن كثير على هذا القول وقال : " وهذا القول غريب جدًا بل منكر " (٤٣) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن أشراط الساعة باب في الآيات التي تكون قبل الساعة ٤/ ٢٢٢٥ ، ٢٢٢٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٩ .

(٣) مجاز القرآن ٢٠٨/٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٨ .

الراجـــح من الأقوال السابقة :

ذكر ابن كثير [١] في تفسير الحديث السابق عـن ابن عباس ثم قال :

" وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما ــ حبر الأمة وترجمـان القرآن وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم مع الأحاديـث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها ، مما فيه مقنـع ودلالـة ظاهره على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن. قـال تبـارك وتعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بيِّن واضح يراه كل أحـد وعلى ما فسره ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد وهكذا قوله تعالى : ﴿يَغْشَى النَّاسَ ﴾أي يغشاهم ويعميهم ولـو كـان أمرًا خياليًا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ ،وقوله : ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ،أي : يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُـدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا *هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [٢] .

وقال الأستاذ / سيد قطب :" ونحن نختار قول ابن عباس في تفسير الدخان بأنه عند يوم القيامة وقول ابن كثير في تفسيره فهو تهديد له نظائره الكثيرة في القـرآن الكريم ، في مثل هذه المناسبة ، ومعناه : أنهم يشكون ويلعبون فدعهم وارتقب ذلك اليوم المرهوب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس . ووصف هذا بأنه عذاب أليم وصور استغاثتهم : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّـا مُؤْمِنُـونَ ﴾ ورده علـيهم باستحالة الاستجابة فقد مضى وقتها [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أي : "يقول الكافرون إذا

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٩ .

(٢) سورة الطور آية ١٣ ، ١٤ .

(٣) ظلال القرآن ٢٥ /٣٢٠٥ .

عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم كقوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ ﴾[١]، وكذا قوله جل وعلا : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَـا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [٢] ، وهكذا جل وعلا ها هنا "[٣] .

قوله تعالى : ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ* ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ "يقول كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بيَّن الرسالة والنذارة ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه بل كذبوه وقالوا معلم مجنون وهـذا كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ "[٤] .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ "يحتمل معنين :

أحدهما: انه يقول تعالى : ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الـدار الـدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيـه من الكفر والتكذيب كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [٥]، وقـوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَـادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْـهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [٦] .

والثاني : أن يكون المراد إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلاً بعـد انعقـاد أسـبابه ووصوله إليكم وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم مـن

(١) سورة الأنعام آية : ٢٧ .

(٢) سورة إبراهيم آية : ٤٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/١٤٠ .

(٤) سورة الفجر آية : ٢٤ ، تفسير ابن كثير ٤/١٤٠ .

(٥) سورة المؤمنون آية : ٧٥ .

(٦) سورة الأنعام آية : ٢٨ .

الكشف عنهم أن يكون باشرهم كقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾[١] ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم بل كان قد انعقد سببه عليهم ، ولا يلزم أيضًا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه ، قال تعالى إخبارًا عن شعيب عليه السلام انه قال لقومه حين قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أولو كنا كارهين قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا ﴾ [٢] وشعيب لم يكن قط على ملتهم وطريقهم ، وقال قتادة : إنكم عائدون إلى عذاب الله " [٣] .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾

قال الطبري : "وقد اختلف أهل التأويل في البطشة الكبرى فقال بعضهم هي بطشة الله بمشركين قريش يوم بدر ،روي عن ابن مسعود أنه قال البطشة الكبرى يوم بدر .

وقال آخرون : بل هي بطشة الله بأعدائه يوم القيامة .

حدثني يعقوب بن إبراهيم قال : ثنا ابن عليه قال ثنا خالد الحذاء عن عكرمة قال ابن عباس قال ابن مسعود " البطشة الكبرى يوم بدر وانا أقول هى يوم القيامة[٤]".

وقال ابن كثير : هذا إسناد صحيح عنه وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في اصح الروايتين عنه [٥] .

وقال الرازي : القول الثاني أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف

(١) سورة يونس آية ٩٨ .
(٢) سورة الأعراف آية ٨٨ ، ٨٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤/١٤٠ .
(٤) تفسير الطبري ٢٥ /١٣٤ ، ١٣٥ .
(٥) تفسير ابن كثير ٤/١٤٠ .

به هذا الوصف العظيم ؛ ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة ولما وصف بكونها " كبرى" وجب أن تكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق وذلك إنما يكون في القيامة [١] .

المعنى الإجمالي

انتظر يا محمد عذابهم يوم تأتي السماء بدخان كثيف بيِّن واضح يراه كل أحد يتغشاهم ويعميهم ، ثم يقول الكفار إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم ، كيف يتذكر هؤلاء ، وقد جاءهم رسول بيِّن الرسالة والنذارة ، مع هذا تولوا عنه وكذبوه واتهموه بالجنون ، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكرة ولو كشف عنهم العذاب لعادوا على كفرهم ، سيبطش الله بهم البطشة الكبرى يوم القيامة .

ما يستخلص من الآيات :

١ ــ الدخان الذي تأتي به السماء من أمارات الساعة على الأرجح .

٢ ــ الكفار يسألون الله كشف العذاب ليعودوا للإيمان بالله .

٣ ــ أنكر الله على الكفار ادعاءهم فقد أرسل لهم رسول فكذبوه واتهموه بالجنون .

٤ ــ لو كشف الله عن الكفار العذاب لعادوا على كفرهم ، سيبطش الله بهم يوم القيامة .

* * *

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٧ /٢٤٤ .

قصة فرعون مع موسى

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ *وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ *وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ *وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ *فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ *فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ *وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ *كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ *فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ (١) .

مناسبة الآيات لما قبلها :

" أعلم أنه لما بيّن أن كفار مكة مصرون على كفرهم ، بيّن أن كثيرًا من المتقدمين أيضًا كانوا كذلك فبين حصول هذه الصفة في أكثر قوم فرعون (٢).

معاني المفردات :

ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون : أي لقد ابتلينا وامتحنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون .

أدوا إليّ عباد الله : ادفعوا إليّ بني إسرائيل .

رسول أمين : أي رسول مؤتمن على الوحي غير متهم .

وأن لا تعلوا على الله: أي لا تتكبروا على الله ولا تترفعوا عن طاعته .

إني آتيكم بسلطان مبين : أي قد جئتكم بحجة واضحة وبرهان ساطع.

إني عذت بربي وربكم : أي التجأت إليه تعالى واستجرت به .

أن ترجمون : أن تقتلون .

---

(١) سورة الدخان ١٧ : ٢٩ .

(٢) الفخر الرازي ٢٧ / ٢١٠ .

فاعتزلون : " أي لا تتعرضوا لي ودعوا الأمر مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا"(١) .

فأسر بعبادي ليلاً : سر ببني إسرائيل ليلا .

واترك البحر رهوًا : قال الجوهرى : ويقال افعل ذلك رهواً أى ساكناً على هيئتك .وعيش راهٍ أى ساكن ورها البحر سكن ، والرهو والرهوه : المكان المرتفع والمنخفض يجتمع فيه الماء وهو من الأضداد (٢) .

كم تركوا من جنات وعيون : " كم للتكثير أي تركوا كثيرًا من البساتين والحدائق الغناء والأنهار والعيون الجارية " (٣) .

مقام كريم : هو المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها.

نعمة كانوا فيها فاكهين : النعمة بالفتح من التنعيم وهو سعة العيش والراحة ، وبالكسر من المنه وهى العطية والأفضال (٤) أي ناعمين بالرفاهية وكمال السرور .

أورثناها قومًا آخرين : أي ملكناها بني إسرائيل .

فما بكت عليهم السماء : أي فما حزن على فقدهم أحد .

الشرح التحليلي

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ البلاغة في قوله : **﴿ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾** أي : " امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم على أنه من فتن الفضة أي : عرضها على النار فيكون بمعنى الامتحان وهو استعارة والمراد عاملناهم معاملة الممتحن ليظهر حالهم لغيرهم أو أوقعناهم في

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٤٠ .

(٢) الصحاح ٦/٢٣٦٦ .

(٣) البحر المحيط ٨/٣٤ .

(٤) أحكام القرآن للقرطبى ١٦/١٣٦ .

الفتنة على أنه بمعناه المعروف والمراد بالفتنة حينئذ ما يفتن به الشخص أي يغتر ويغفل عما فيه صلاحه [١] .

و"المعنى : "عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسول إليهم : ﴿ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو موسى عليه السلام فكذبوه فأهلكوا ؛ فهكذا افعل بأعدائك يا محمد .

إن لم يؤمنوا. وقيل فتناهم عذبناهم بالغرق. وفي الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ولقد جاء آل فرعون رسول كريم وفتناهم ، أي أغرقناهم ؛ لأن الفتنة كانت بعد مجيء الرسل والواو لا ترتب ، ومعنى "كريم" أي كريم في قومه . وقيل : كريم الأخلاق بالتجاوز والصفح . وقال الفراء [٢] : كريم على ربه إذ اختصه بالنبوة وإسماع الكلام " [٣] .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

الأعراب والمعنى في "أن" قولان : **الأول هي** " أن" المفسرة ؛ لأن مجيء الرسول إلى من بُعث إليهم متضمن لمعنى القول ؛ لأنه لا يجئهم إلا مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله .

الثاني : هي "أن" المخففة من الثقيلة ومعناه وجاءهم بأن الشأن والحديث أدوا إليّ "عباد الله " مفعول به وهم بنو إسرائيل يقول أدوهم إليّ وأرسلوهم معي . كقوله تعالى : ﴿ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [٤] ويجوز أن يكون نداء لهم ؛ والتقدير : أدوا إليّ يا عباد الله ما هو واجب لي عليكم من الإيمان لي وقبول دعوتي وإتباع سبيلي وعلل ذلك بأنه " رسول أمين " قد ائتمنه الله على وحيه

(١) روح المعاني ٢٥ /١٢٠ .
(٢) معاني القرآن ٣/ ٤٠ .
(٣) أحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ١٣٢ .
(٤) سورة طه آية : ٤٧ .

ورسالته " [١]

قوله تعالى : ﴿ وأَلا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي لا تستكبروا عن إتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه : ﴿ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة واضحة وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والأدلة القاطعات"[٢].

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ .

"قال ابن عباس وأبو صالح هو الرجم باللسان وهو الشتم، وقال قتادة : الرجم بالحجارة أي أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إليّ بسوء من قول أو فعل"[٣] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾

يقول الإمام الفخر الرازي "أي أن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما آتيتكم به من الحجة ، فاللام في لي لام الآجل " فاعتزلون : أي خلوا سبيلي لا لي ولا عليّ قال مصنف الكتاب رحمه الله تعالى : أن المعتزلة يتصلفون ويقولون أن لفظ الاعتزال أينما جاء في القرآن كان المراد منه الاعتزال عن الباطل لا عن الحق ، فاتفق حضوري في بعض المحافل ، وذكر بعضهم هذا الكلام فأوردت عليه هذه الآية وقلت المراد الاعتزال في هذه الآية الاعتزال عن دين موسى عليه السلام وطريقته وذلك لا شك أنه اعتزال عن الحق فانقطع الرجل " [٤] .

قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾

(١) الكشاف الزمخشري ١٧٦/٤ ، الفخر الرازي ٢٧ / ٢١٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٤١ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) الفخر الرازي ٢٧ : ٢١٠ .

يقول ابن كثير [١] :" فلما طال مقامه ﷺ بين أظهرهم وأقام حجج الله تعالى عليهم كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا ودعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾[٢]، وهكذا قال هنا : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾

قوله : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلا ﴾ .

قال القرطبي [٣] : " فيه مسألتان: **الأولى** : أى فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادي بمن آمن بالله من بني إسرائيل "ليلاً " أي : قبل الصباح: ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ قرأ أهل الحجاز "فأسر" بوصل الألف [٤] ،

وكذلك ابن كثير من سرى وقرأ الباقون "فأسر" بالقطع من أسرى .

الثانية :أمر موسى عليه السلام الخروج ليلاً وسير الليل في الغالب إنما يكون عن خوف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدو فيتخذ الليل سيرًا مُسدِلاً ؛ فهو من أستار الله تعالى ، وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحَرَ أو جَدْب ، فيتخذ السُرى مصلحة من ذلك . وكان النبي ﷺ يسري ويدلج [٥] ويترفق ويستعجل بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة ".

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي : يتبعكم فرعون وقومه ذلك سببًا لهلاكهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ١٤١/٤ .

(٢) سورة يونس آية ٨٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣٣/١٦ ، ١٣٤ .

(٤) القراءة بوصل الألف قراءة متواترة تقريب النشر صـ١٢٥ .

(٥) يسري : يسير بالليل ويدلج : يسير من أول الليل . النهاية ١٢٩/٢ ،٢٦٤ .

قوله تعالى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ .

يقول ابن كثير : " وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم ، فأمره الله ان يتركه على حاله ساكنًا وبشره بأنهم جند معرفون فيه وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى .

يقول ابن عباس : أترك البحر رهوًا : كهيئته وامضه وقال مجاهد : رهوًا طريقًا يبسًا كهيئته .يقول : لا تأمره يرجع ، اتركه حتى يرجع آخرهم " [١] .

قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ* وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [٢] .

يقول الفخر الرازي : دلت هذه الآيات على أنه تعالى أغرقهم ثم قال بعد إغراقهم هذا الكلام ، وبيّن تعالى أنهم تركوا هذه الأشياء الخمسة ، وهي الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم ، والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم في المجالس والمنازل الحسنة ، وقيل المنابر التي كان يمدحون فرعون عليها " [٣] .

قوله : ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ : " النَعمة بالفتح : التنعيم وبالكسر: اليد والصنيعة والمِنة ، وقال ابن عمر: المراد بالنعمة : نيل مصر، وقال ابن زياد : أرض مصر لكثرة خيراتها ، وقيل : ما كانوا فيه من السعة والدعة ، وقد يقال نَعْمَة ونِعْمَة " بفتح النون وكسرها " حكاه الماوردي [٤] ، قال : وفي الفرق بينهما وجهان : **أحدهما** : أنها بكسر النون في الملك وبفتحها في البدن والدين ،قاله النضر بن شُميل . **الثاني** : أنهما بالكسر من المنة وهو الأفضال والعطية ؛ وبالفتح

---

(١) تفسير ابن كثير ١٤١/٤ .

(٢) سورة الدخان الآيات : ٢٥ : ٢٨ .

(٣) الفخر الرازي ٢٧ / ٢١١ .

(٤) تفسير الماوردي ٥/ ٢٥١ ، ٢٥٢ .

من التنعيم وهو سعة العيش والراحة ،قاله بن زياد " (١) .

وقال ابن كثير :" كانت الجنان بحافتي نهر النيل في أوله إلى آخره في الشقين جميعًا ما بين أسوان إلى رشيد وكان له تسع خلج : خليج الإسكندرية، وخليج دمياط وخليج سردون ، وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنتهى متصلة ،لا ينقطع منها شيء وزرع بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء وكانت جميع أرض مصر تروي من ست عشر ذراعًا لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها"

وهذا يدل على أن قدماء المصريين تقدموا في الزراعة بل كانت مصر هي البلد الوحيد الذي أغاث العالم حوله بالزراعة وهذا ما نأخذه من قصة سيدنا يوسف ــ عليه السلام ــ وأخوته الذين جاءوا لأخذ الحبوب من مصر وتقابلوا مع يوسف عليه السلام .

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أي عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير " (٢) .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾

" ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء وهم بنو إسرائيل كانوا مستبعدين في أيديهم فأهلكهم الله على أيديهم وأورثتهم ملكهم وديارهم (٣) .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾

قال الفخر الرازي : فيه وجوه : **الأول** : قال الواحدي في البسيط : روي أنس ابن مالك أن النبي ﷺ قال : " ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يخرج

(١) تفسير القرطبي ١٦ /١٣٦ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٤١ .
(٣) الفخر الرازي ٢٧ /٢١١ .

منه رزقه وباب يدخل فيه عمله ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية (١) ، وقال ذلك لأنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحًا فيبكى عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء كلام طيب ولا عمل صالح فيبكي عليهم ، وهذا قول أكثر المفسرين .

القول الثاني : التقدير فما بكت عليهم أهل السماء وأهل الأرض فحذف المضاف والمعنى ما بكت عليهم الملائكة ولا المؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين .

القول الثالث : أن عادة الناس جرت بان يقولوا في هلاك الرجل العظيم الشأن : أنه أظلمت له الدنيا وكسفت الشمس والقمر لأجله وبكت الريح والسماء والأرض ، ويريدون المبالغة في تعظيم تلك المصيبة لا نفس هذا الكذب ،ونقل صاحب الكشاف عن النبي ﷺ أنه قال : " ما من مؤمن مات في غربة غابت فيه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض " (٢) .

وقال جرير :

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا(٣)

وفيه ما يشبه السخرية بهم يعني أنهم كانوا يستعظمون أنفسهم وكانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والأرض فما كانوا في هذا الحد بل كانوا دون ذلك وهذا إنما يذكر على سبيل التهكم . ثم قال : ﴿ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ أي لما جاء وقت هلاكهم لم يُنظروا إلى وقت آخر لتوبة وتدارك وتقصير (٤) .

(١) أخرجه الترمذي في السنن ، كتاب التفسير باب " ومن سورة الدخان " ٥/٣٨٠ ح ٣٢٥٥ ــ قال أبو عيسى حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث .
(٢) أخرجه الطبرى فى التفسير ٢٥/١٢٥ ، وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان ٧/١٧٢ ح٩٨٨٨ .
(٣) البيت لجرير وهو رثاء عمر بن عبد العزيز وذلك أن الجو قد أظلم ، وكان المنتظر أن تظهر هذه النجوم ويطلع القمر ، ولكن شيئاً منها لم يظهر . والشاهد فيه هذا البكاء .
(٤) الفخر الرازى ٢٧/٢١١ . .

وقال الزمخشري : " وقالت الخارجية

أبا شجر الخابور مالك مورقًا كأنك لم تجزع على ابن طريف؟!(١)

وذلك على سبيل التمثيل والتخيل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه وكذلك ما يروي عن ابن عباس من بكاء يصل المؤمن وآثاره في الأرض ومصاعد عمله ومهابط رزقه في السماء تمثيل ونفي ذلك عنهم في قوله :﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض " (٢) .

ويعلق الأستاذ / سيد قطب على هذه الآية فيقول :" هو تعبير يلقى الهوان ، كما يلقي ظلال الجفاء فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء ، ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء ، وذهبوا ذهاب النمال ، وهم كانوا جبارين في الأرض يطأون الناس بالنعال ! ذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه ، وهو مؤمن بربه ، وهم به كافرون ! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه . ولو أحس الجبارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله ، ولأدركوا أنهم يعيشون في الكون منبوذين منه ، مقطوعين عنه ، لا تربطهم به أصرة ،وقد قطعت آصره الإيمان (٣) .

* * *

(١) البيت لليلى بنت طريف ترثي أخاها الوليد بن طريف وفيه تستثير شجر الخابور . والخابور موضع كثير الشجر تستثيره في بكائها على أخيها .

(٢) الكشاف ٤/ ١٧٩ .

(٣) في ظلال القرآن ٢٥ /٣٢١٤ .

المعنى الإجمالي

يذكر الله كفار قريش بما حل بالطاغين من قوم فرعون وقد جاءهم رسول شريف الحسب والنسب من أكرم عباد الله وهو موسى كليم الله قال لهم موسى ادفعوا إليَّ عباد الله وأطلقوهم من العذاب وهم بنو إسرائيل .إني رسول مؤتمن على الوحي غير متهم وأنا لكم ناصح فأقبلوا نصحي ولا تتكبروا على الله ولا تترفَّعوا عن طاعته وقد جئتكم بحجة واضحة وبرهان ساطع يعترف به كل عاقل وإني التجأت إليه تعالى واستجرت به من أن تقتلوني وإن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أتيتكم به من الحجة فكفوا عن أذاي وخلو سبيلي ثم دعا عليهم لما كذبوه إنهم قوم مجرمون فانتقم منهم ثم أمره الله أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً وأن فرعون وقومه يتبعوهم وهو ذلك سبيلاً لهلاكهم وأمر الله موسى عليه السلام أن يترك البحر ساكن منفرجًا على هيئته بعد أن تجاوزوه لأنه سيُغرق فرعون وقومه فيه ، وكم ترك هؤلاء الكفار ــ بعد هلاكهم ــ العديد من البساتين والحدائق الغناء والأنهار والعيون الجارية والمزروعات ومجالس ومنازل حسنة التي كانوا ناعمين فيها بالرفاهية وكمال السرور ، وقد أورث الله كل هذه الأشياء لبني إسرائيل ولم يحزن على هؤلاء الكفار أحد ولم يتأثر بموتهم كائن من الخلق .

<u>الدروس المستفادة من الآيات :</u>

١ ــ أرسل الله سيدنا موسى إلى فرعون وهو رسول كريم .

٢ ــ سيدنا موسى يطلب من فرعون إرسال بني إسرائيل معه وعدم التكبر على الله وأنه يستجير بالله أن يقتلوه .

٣ ــ أمر الله سبحانه سيدنا موسى أن يسير ببني إسرائيل ليلاً .

٤ ــ سنة الله في الكون إهلاك الكافرين الظالمين لكثرة ظلمهم فقد أهلك فرعون وقومه بالغرق .

٥ ــ تركك فرعون وقومه كثير من الجنات والزروع وأورثها الله بني إسرائيل .

٦ ــ لم يحزن على هؤلاء الكفار أحد ولم يتأثر بموتهم أي كائن من الخلق .

• • •

نجاة بني إسرائيل من العذاب

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ* مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ* وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاء مُّبِينٌ ﴾ (١) .

مناسبة الآية لما قبلها :

يقول الإمام الفخر الرازي : " أعلم أنه تعالى لما بين كيفية إهلاك فرعون وقومه بيّن كيفية إحسانه إلى موسى وقومه " (٢) .

معاني الكلمات :

العذاب المهين : العذاب الشديد المفرط في الإذلال والإهانة .

عاليًا : متكبرًا جباراً .

ولقد اخترناهم : أي اصطفيناهم وشرفناهم .

بلاء : امتحان واختبار .

ثم قال الإمام الفخر الرازي (٣) : " وأعلم أن دفع الضرر مقدم على إيصال النفع فبدأ تعالى ببيان دفع الضرر عنهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ يعنى قتل الأنبياء واستخدام النساء والإتعاب في الأعمال الشاقة ".

ثم قال : ﴿ مِن فِرْعَوْنَ﴾ وفيه وجهان : **الأول** : أن يكون التقدير من العذاب المهين الصادر من فرعون . **الثاني** : أن يكون فرعون بدلاً من العذاب المهين كأنه في نفسه كان عذابًا مهينًا لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم . قال صاحب الكشاف(٤) :

---

(١) سورة الدخان الآيات : ٣٠ : ٣٣ .

(٢) الفخر الرازي ٢١٢ / ٢٧ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) الكشاف ١٧٩/٤ .

وقرئ : " مِنْ عَذَابِ الْمُهِينِ "[1] وعلى هذه القراءة " فالمهين " هو فرعون لأنه كان عظيم السعي في إهانة المحقين . وفي قراءة ابن عباس " مَن فرعون "[2] وهو بمعنى الاستفهام .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ جوابه كأن التقدير أن يقال هل تعرفونه من هو في عتوه وشيطنته ؟ ثم عرّف حاله بقوله :" إنه كان عالياً من المسرفين أي كان عالي الدرجة في طبقة المسرفين ، ويجوز أن يكون المراد ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا ﴾ لقوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ علا فِي الأَرْضِ﴾ [3] وكان أيضاً مسرفاً ومن إسرافه إنه على حقارته وخسته ادعى الإلهية ولما بيّن الله تعالى أنه كيف رفع الضرر عن بني إسرائيل وبين أنه كيف أوصل إليهم الخيرات فقال : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ وفيه مبحثان :

البحث الأول : أن قوله على علم في موضع الحال ثم فيه وجهان :

أحدهما : أي عالمين بكونهم مستحقين لأن يختاروا ويُرجحوا على غيرهم .

الثاني : أن يكون المعنى مع علمنا بأنهم قد يزيغون ويصدر عنهم الفرطات في بعض الأحوال .

البحث الثاني : ظاهر قوله : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يقتضي كونهم أفضل من العالمين فقيل المراد على عالمي زمانهم ، وقيل : هذا عام دخله التخصيص كقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [4] .

ثم قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ﴾ ، مثل فلق البحر وتظليل الغمام،

(١) مختصر شواذ القرآن لابن خالويه ص ١٣٨ .
(٢) شواذ القراءة للكرماني ص ٢٢٠ .
(٣) سورة القصص آية : ٤ .
(٤) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

وإنزال المن والسلوى وغيرها من الآيات القاهرة التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم ﴿ بَلاء مُّبِينٌ ﴾ أي نعمة ظاهرة لأنه تعالى لما كان يبلو بالمحنة فقد يبلو أيضاً بالنعمة اختباراً ظاهراً ليتميز الصديق عن الزنديق ".

ويقول الإمام القرطبي :" وفي قوله : ﴿ بَلاء مُّبِينٌ﴾ أربعة أوجه أحدهما : نعمة ظاهرة قاله الحسن وقتادة كما قال تعالى : ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً﴾ [1] .

الثاني : عذاب شديد قاله الفراء .

الثالث : اختبار يتميز به المؤمن من الكافر ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد وعنه أيضاً : ابتلاؤهم بالرخاء والشدة " [2] .

ويقول صاحب الظلال عن اختيار الله لبني إسرائيل : " اختيار الله لبني إسرائيل – على علم – بحقيقتهم كلها، خيرها وشرها . اختيارهم على العالمين في زمانهم بطبيعة الحال ، لما يعلمه الله من أنهم أفضل أهل زمانهم وأحقهم بالاختيار والاستخلاف – على كل ما قصه عنهم بعد ذلك من تلكؤ ومن انحراف والتواء . مما يشير إلى أن اختيار الله ونصره قد يكون لأفضل أهل زمانهم ، ولو لم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان العالي إذا كانت فيهم قيادة تتجه بهم إلى الله على هدى" .

ثم يقول عن الآيات والبلاء المبين " فتعرضوا للاختبار بهذه الآيات ، التي آتاهم الله إياها للابتلاء ، حتى إذا تم امتحانهم ، وانقضت فترة استخلافهم أخذهم الله بانحرافهم والتوائهم وبنتيجة اختيارهم وابتلائهم ، فضربهم بمن يشردهم في الأرض وكتب عليهم الذلة والمسكنة ، وتوعدهم أن يعودوا إلى النكال والتشريد كلما بغوا في الأرض إلى يوم الدين [3] .

(١) سورة الأنفال آية : ١٧ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦ /١٤١ .
(٣) في ظلال القرآن ٢٥ / ٣٢١٤ ، ٣٢١٥ .

المعنى الإجمالي

لقد أنقذ الله بني إسرائيل من العذاب الشديد المفرط في الإذلال والإهانة وهو قتل أبنائهم واستخدام نساءهم وإرهاقهم في الأعمال الشاقة من طغيان فرعون وجبروته أنه كان متكبرًا جبارًا متجاوزًا الحد في الطغيان والإجرام ، ولقد اصطفى الله بني إسرائيل وشرفهم على أهل زمانهم وليس على أمة الإسلام وأتاهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ما فيه اختبار وامتحان ، ظاهر جلي لمن تدبر وتبصّر – ومن هذه الآيات فلق البحر وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى وغيرها من الآيات الباهرة .

ما يستخلص منم الآيات :

١ – نجى الله بني إسرائيل من العذاب الشديد الذي كان يصبه عليهم فرعون .

٢ – كان فرعون أكبر طاغية على الأرض متجاوز الحد في الطغيان والظلم .

٣ – اصطفى الله بني إسرائيل وشرفهم على أهل زمانهم وأتاهم من خوارق العادات ما فيه امتحان واختبار .

* * *

إنكار المشركين للبعث

قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ*فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ*وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ*مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ*إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ*يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ*إِلا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء لَيَقُولُونَ.. .إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

معاني الكلمات :

الموتة الأولى : قال الزمخشري : " وما معنى ذكر الأولى كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى ؟ قلت ، معناه – والله الموفق للصواب: إنه قيل لهم إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة كما تقدمتكم موتة قد تعقبها حياة ، وذلك قوله عز وجل : ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (٢) فقالوا : ﴿ إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى ﴾ يريدون ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياه إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة إلا للموتة الأولى خاصة " (٣) .

بمنشورين : بمبعوثين بعد الموت وأنشر الله الموتى أحياهم .

تبع: هم ملوك اليمن وكانوا يسمون ملوكهم التبابعة .

---

(١) سورة الدخان الآيات : ٣٤ : ٤٢ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٨ .

(٣) الكشاف للزمخشري ٤/ ١٨٠ .

قال الجوهري : التبابعة ملوك اليمن واحدهم تبع [١] .

وتبع: "وهو تبع الأكبر الحميري واسمه أسعد بهمزة،وفي بعض الكتب سعد بدونها وكنيته أبو كرب وكان رجلاً صالحًا أخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت. كان تبع رجلاً صالحًا ألا ترى أن الله تعالى ذم قومه ولم يذمه" [٢] . وقال رسول الله ﷺ لا تسبوا تبعًا فإنه كان قد أسلم" [٣].

لاعبين : غافلين عابثين .

يوم الفصل : يوم القيامة وسمي بذلك لأن الله يفصل فيه بين خلقه .

مولى : الولي : هو القريب والناصر .

يقول ابن كثير : " يقول الله تعالى منكرًا على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد وأنه ما ثمَّ إلا هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا فإن كان البعث حقًا : ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقًا جديد ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا . يوم تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا . ثم قال تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا ومنذرًا لهم بأسه الذي لا يرد كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع وهم سبأ حيث أهلكهم الله عز وجل وخرب ديارهم وشردهم في البلاد وفرقهم شذر مذر . شبههم بأولئك ، وقد كانوا عربًا من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان وقد كانت حمير وهم سبأ كلما ملك فيهم رجل سموه تبعًا كما يقال كسرى لمن ملك

---

(١) الصحاح للجوهري ــ مادة " تبع" .

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٢/ ٤٨٨ ح ٣٦٨١ .

(٣) روح المعاني ١٢٧/٢٥ ، رواه الطبراني في الأوسط ١١٢/٢ ح ١٤١٩ .

الفرس وقيصر لي ملك الروم وفرعون لمن ملك مصر كافرًا والنجاشي لمن ملك الحبشة وغير ذلك من أعلام الأجناس "[١] .

قوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ *مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ*إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ*يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ*إِلا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾

يقول صاحب الظلال [٢] :" والمناسبة بين خلق السماوات والأرض وما بينهما وبين قضية البعث والنشور مناسبة دقيقة ولكن الفطرة البشرية تدركها في يسر حين توجه إليها مثل هذا التوجيه .

والواقع أن تتدبر ما في خلق السماوات والأرض من دقة وحكمة وقصد ظاهر وتنسيق ملحوظ وحلق كل شيء بمقدار لا يزيد ولا ينقص عن تحقيق الغاية من خلقه . وتحقيق تناسقه مع كل شيء حوله فظهور القصد في خلق كل شيء بالقدر والشكل الذي خلق به وانتفاء المصادفة والبعث في أي جانب صغر أو كبر في تصميم هذه الخلائق الهائلة وما فيها من خلائق دقيقة لطيفة .

الواقع أن تدبر هذا كله يوقع في النفس أن لهذا الخلق غاية فلا عبث فيه وأنه قائم على الحق فلا باطل فيه . وأن له نهاية لم تأت بعد ، ولا تجيء بالموت بعد هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب ،وأن أمر الآخرة وأمر الجزاء فيها حتم لابد منه من الناحية المنطقية البحتة لهذا التصميم المقصود من بناء هذا الوجود حتى تتحقق به النهاية الطبيعية للصلاح والفساد في هذه الحياة الدنيا . هذا الصلاح وهذا الفساد اللذان ركب الإنسان على أساس الاستعداد لهما ؛ وظهور جهده هو وإرادته في اختيار أحدهما وتلقى جزاء هذا الاختيار في نهاية المطاف.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٤٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٥ / ٣٢١٦ .

وأن خلق الإنسان بهذا الاستعداد المزدوج ، ونفي البعث عن فعل الله سبحانه ليقتضيان أن يكون لهذا الإنسان مصير معين ينتهي إليه بعد انتهاء رحلته الأرضية وهذا هو صميم قضية الآخرة ، ومن ثم يجيء بعد توجيه النظر إلى الحكمة والقصد في خلق السماوات والأرض في قوله : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

ويجيء هذا القول طبيعيًا ومرتبطًا بما قبله كل الارتباط .فالحكمة تقتضي أن يكون هناك يوم يفصل فيه بين الخلائق ، ويحكم فيه بين الهدى والضلال ، ويكرم فيه الخير ويهان فيه الشر ، ويتجرد الناس من كل سند لهم في الأرض ، ومن كل قربى وآصره ويعودون إلى خالقهم فرادى كما خلقهم، يتلقون جزاء ما عملت أيديهم، لا ينصرهم أحد ولا يرحمهم أحد إلا من ينال رحمة ربه العزيز القادر الرحيم العطوف الذي خرجوا من يده ــ سبحانه ــ ليعلموا ، وعادوا إلى يده ــ سبحانه ــ ليتسلموا منه الجزاء وما بين خروجهم ورجوعهم إنما هو فرصة للعمل ومجال للابتلاء .

هكذا تقتضي الحكمة الظاهرة في تصميم هذا الكون وفي خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وفي التقدير الواضح والقصد الناطق في كل شيء في هذا الوجود ".

المعنى الإجمالي

إن كفار قريش يقولون لن نموت إلا موتة واحدة وهي موتتنا الأولى أي : أنهم ينكرون البعث واحتجوا على نفي الحشر والنشر بأن قالوا : أن كان البعث والنشور حقًا فجعلوا لنا إحياء ممن مات من آباءنا ليصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في البعث يوم القيامة ثم يهدد الله هؤلاء الكفار أنهم ليسوا أقوى وأشد من تبع والأمم السابقة فقد كانوا أقوى وأشد من المشركين وأهلكهم الله وفرقهم مع ما كانوا عليه من القوة والشدة ،ثم بيّن الله أنه ما خلق السماوات والأرض وما فيهما

من المخلوقات البديعة لعبًا وعبثًا بل خلقهما بالعدل والحق المبين ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون فينكرون البعث والجزاء ، أن يوم القيامة موعد لمحاسبة الخلائق أجمعين ،وفي هذا اليوم لا يدفع قريب عن قريبه ولا صديق عن صديقه ولا ينفع أحدٌ أحدًا إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض .

ما يستخلص من الآيات :

١ ــ كفار قريش ينكرون البعث ويطلبون من الرسول ﷺ إحياء موتاهم حتى يصدقوا .

٢ ــ أهلك الله سبحانه من كان أقوى وأشد من قريش .

٣ ــ خلق الله السماوات والأرض بالحق وليس عبثًا .

٤ ــ يوم القيامة يحاسب الله الخلائق ولا ينفع أحد أحدًا إلا عمله وشفاعة من أذن له الله .

* * *

طعام المشركين

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ*طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ* خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ* ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ* إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [١].

سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾

- عن عكرمة قال : التقى النبي ﷺ بأبي جهل فقال : إن الله أمرني أن أقول لك " أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى" فنزع ثوبه من يده وقال : لا تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ، وقد علمت أني أمنع البطحاء وأنا العزيز الكريم .قال : فقتله الله يوم بدر وأذله وغيره بكلمته وأنزل ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[٢] .

مناسبة الآيات لما قبلها :

قال الإمام الفخر : أعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على أن القول بالقيامة حق ، ثم أردفه بوصف ذلك اليوم ذكر عقيبه وعيد الكفار ثم بعده وعد الإبرار[٣].

معاني المفردات :

شجرة الزقوم : هي شجرة نبتت في أصل الجحيم وقال مجاهد : "ولو وقعت قطرة منها إلى الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم"[٤].

طعام الأثيم : الفاجر من أثم يأثم إذا وقع في الإثم والفجور وقال أبو حيان: "الأثيم صفة مبالغة وهو الكثير الآثام وفسر بالمشرك"[٥].

(١) سورة الدخان الآيات :٤٣ : ٥٠ .
(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٢٨٢ .
(٣) تفسير الفخر الرازي ٢٧/٢١٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤/١٤٥ .
(٥) البحر المحيط ٨/٣٩ .

كالمهل : كعكر الزيت .

خذوه : أي الكافر .

فاعتلوه : أي سوقوه وجروه بعنف وشدة .

على سواء الجحيم : أي وسطها .

ذق إنك العزيز الحكيم : أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ.

الشرح الإجمالي

يقول الأستاذ سيد قطب " ويبدأ المشهد بعرض لشجرة الزقوم بعد تقرير أنها طعام الأثيم ، عرض مفزع مرعب مخيف أن هذا الطعام مثل دردي الزيت المغلي – وهو المهل – يغلي في البطون كغلي الحميم وهناك هذا الأثيم ، هذا المتعالي على ربه وعلى الرسول الأمين . وهذا هو الأمر العالي يصدر إلى الزبانية ليأخذوه في عنف يليق بمقامه "الكريم" .

﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ*ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ خذوه أخذًا واعتلوه عتلاً ، وشدوه في إهانة وبقوة فلا كرامة ولا هوادة وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك الحميم المغلي الذي يشوي ويكوي . ومع الشد والجذب والدفع والعتل الكي والشي . التأنيب والترذيل ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ .

وهذا جزاء العزيز الكريم في غير ما عزة ولا كرامة ، فقد كان ذلك على الله وعلى المرسلين .

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾

فقد كنتم تشكون في هذا اليوم كما كنتم تسخرون وتستهزئون [١] .

" من الصور البيانية في الآيات السابقة قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ

(١) في ظلال القرآن ٢٥ /٣٢١٧ .

عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ قال الزمخشري :" فإن قلت هلا قيل صبوا فوق رأسه من الحميم ، كقوله تعالى : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ (١) ؛ لأن الحميم هو المصبوب لا عذابه ؟ قلت : إذا صُب عليه الحميم فقد صُب عليه عذابه وشدته إلا أن صب العذاب طريقة الاستعارة كقوله " صُب عليه صروف الدهر من صبب " (٢) ، وكقوله تعالى : ﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ (٣) فذكر العذاب معلقًا به الصب مستعارًا له؛ ليكون أهون وأهيب"(٤).

ومن الصور البيانية أيضًا قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه وهو ما حدث في أبي جهل كما بينا في سبب النزول .

المعنى الإجمالي

يصور الله الطعام الذي يتجرعه الكافر في النار بأنه شجرة الزقوم الشجرة الخبيثة التي تنبت في أصل الجحيم وهي طعام كل كافر فاجر ليس له طعام غيرها وهي في شناعتها وفظاعتها كالنحاس المذاب الذي يتناهي حره فهو يجرجر في البطن كغليان الماء الشديد الحرارة ، ثم يأمر الله زبانية جهنم بأخذ هذا الفاجر وجره بعنف وشدة إلى وسط الجحيم ثم يصبوا فوق رأسه عذاب ذلك الحميم الذي تناهى حره ثم يقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة ذق هذا العذاب أنك أنت

(١) سورة الحج آية : ١٩ .

(٢) تمام البيت :

كم امرئ كان في خفض وفي دعة ** صُبت عليه صروف الدهر من صبب .

والمعنى : كم من امرئ كان ناعمًا وفي سعة من العيش وهدوء بال ثم تبدلت حاله فانصبت عليه المصائب من كل ناحية وفي شدة وتدفق والشاهد فيه صبت عليه صروف الدهر .

(٣) سورة الأعراف آية : ١٢٦ .

(٤) الكشاف ٤/ ١٨٢ ، ١٨٣ .

المعزز المكرم . أن هذا العذاب هو ما كنتم تشكون في الدنيا فذوقوه اليوم .

ما يستخلص من الآيات :

١ ــ طعام الكافر في النار شجرة الزقوم .

٢ ــ يشد الكافر بعنف وقسوة إلى النار ثم يصب فوق رأسه الزيت المغلي .

٣ ــ يُسخر من الكافر فيقال له ذق إنك أنت العزيز الكريم .

* * *

جزاء المتقين

قال تعالى:﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ* كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ* لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلا الْمَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ (١) .

مناسبة الآيات لما قبلها :

قال الإمام الفخر الرازي (٢) : أعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في الآيات المتقدمة ذكر الوعد في هذه الآيات فقال : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾

معاني الكلمات :

إن المتقين : أي الذين اتقوا الله في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

مقام أمين : في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكارة وهو الجنة .

السندس : رقيق الديباج .

الاستبرق : غليظ الديباج

متقابلين : أي متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض

حور عين : الحوراء : البيضاء ، والعيناء عظيمة العينين .

يدعون فيها بكل فاكهة أمنين : أى يطلبون من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه في الجنة لأجل أنهم آمنون في التخم والأمراض .

لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى : استثناء منقطع أي لا يذوقون في

(١) سورة الدخان الآيات : ٥١ : ٥٩ .

(٢) الفخر الرازي ٢٧ / ٢١٦ .

الجنة الموت لكنهم قد ذوقوا الموتة الأولى في الدنيا فلم يعد ثمة موت بل خلود أبد الآبدين .

ووقاهم عذاب الجحيم : أى خلصهم ونجاهم من عذاب جهنم الشديد الأليم .

فضلا من ربك : أي تفضلاً منه تعالى عليهم .

ذلك هو الفوز العظيم : هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي : إنما سهلنا القرآن بلغتك ــ وهي لسان العرب ــ لعلهم يتعظون وينزجرون .

﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ :أي : فانتظر أنهم منتظرون هلاكك.

الشرح التحليل :

إِنَّ الْمُتَّقِينَ الذين كانوا يخشون هذا اليوم ويخافون أذا هم ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ لا خوف فيه ولا فزع ولا شد ولا جذب ولا عتل فيه ولا صب بل هم منعمون رافلون ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يلبسون من سندس ــ وهو الحرير الرقيق ــ ومن إستبرق ــ وهو الحرير السميك ويجلسون متقابلين في مجالسهم يسمرون . كل ذلك ومثله . تزويجهم بحور عين ، يتم بهن النعيم .وهم في الجنة أصحاب الدار ، يطلبون ما يشاءون و﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ لا يتوقعون نهاية لهذا النعيم ، فلا موت هناك وقد ذاقوا الموتى الأولى ، وغيرها لا يذوقون .. " وذلك في مقابل ما كان المشركون يقولون : ﴿ إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ فنعم إنها الموتة الأولى ولكي وراءها الجحيم والنعيم "

﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ تفضلاً منه سبحانه فالنجاة من العذاب لا تكون إلا بفضله ورحمته ﴿ فَضْلا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(١) .

قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ والمعنى أنه تعالى وصف

(١) في خلال القرآن ٢٥ /٣٢١٧ .

القرآن في أول هذه السورة بكونه كتابًا مبينًا كثير البيان والفائدة وذكر في خاتمتها ما يؤكد ذلك فقال : أن ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة إنما يسرناه بلسانك ، أي إنما أنزلناه عربيًا بلغتك لعلهم يتذكرون ، قال القاضي : وهذا يدل على أنه تعالى أراد من الكل الإيمان والمعرفة وأنه ما أراد من أحد الكفر وأجاب أصحابنا أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عائد إلى أقوام مخصوصين فنحن نحمل ذلك على المؤمنين " (١).

قوله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي : انتظر ما وعدتك من النصر عليهم أنهم منتظرون لك الموت ؛ حكاه النقاش ، وقيل : انتظر الفتح من ربك أنهم منتظرون بزعمهم قهرك ، وقيل : انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم فإنهم ينتظرون بك ريب الحدثان ، والمعنى متقارب ، وقيل ارتقب ما وعدتك من الثواب فإنهم كالمنتظرين لما وعدتهم من العقاب ، وقيل : ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل ، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة جعلوا كالمرتقبين ؛ لأن عاقبتهم ذلك والله أعلم " (٢)

المعنى الإجمالي

أنعم الله على المتقين الذين اتقوا الله في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه أنهم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكارة وهو الجنة وأنهم فيها في حدائق وبساتين ناضرة وعيون جارية يلبسون ثياب الحرير الرقيق منه وهو السندس والسميك منه وهو الاستبرق ، ويجلسون متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ، وزوجهم الله بالحور العين ، ويطلبون من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض ، فلا تعب في الجنة ولا وصب، وأنهم لا يذوقون فيها الموت لكنهم ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا فلم يعد

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٧ / ٢١٨ .
(٣) أحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ١٥٢ .

ثمة موت بل خلود أبد الآبدين وخلصهم الله ونجاهم من عذاب جهنم الشديد الأليم ، فقد يفضل الله عليهم بالفوز العظيم الذي لا فوز وراءه ، ثم يذكر الله نعمه بأن يسر وسهل القرآن لعلهم يتعظون وينزجرون ، فانتظر يا محمد ما يحل بهم ، أنهم منتظرون هلاكك وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة .

ما يستخلص من الآيات :

١ ــ المتقون منعمون في الجنة بكل أنواع النعيم من المأكل والملبس .
٢ ــ المتقون لا يذوقون الموت في الجنة بل هم خالدون خلودًا دائمًا .
٣ ــ يسر الله القرآن وجعله بلغة العرب ليتذكروا ما فيه .

* * *

المراجع

١ ــ الجامع الصحيح المختصر لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخــارى . ط دار ابن كثير .

٢ ــ الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبــي . ط دار الحديث .

٣ ــ أحكام القرآن لأبى بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربــى . ط دار الفكر .

٤ ــ أسباب النزول للواحدي .

٥ ــ الكشاف عــن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري . ط دار الفكر .

٦ ــ المحرر الوجيز لابن عطية .

٧ ــ المستدرك على الصحيحين للحاكم .

٨ ــ الوسيط للشيخ محمد طنطاوى شيخ الأزهر رحمه الله .

٩ ــ المعجم الأوسط لأبى القاســم سليمان بــن أحمد الطبرى. ط دار الحديث.

١٠ ــ النهاية لابن الأثير .

١١ ــ تذكرة الحفاظ لابن عبد شمس الدين محمد الذهبي . ط دار الكتب .

١٢ ــ تفسير القرآن العظيم لابن كثير . مكتبة الدعوة الإسلامية .

١٣ ــ تقريب النشر .

١٤ ــ تفسير الماوردى .

١٥ ــ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني .

١٦ ــ جامع البيان عن تأويل آى القرآن لأبى جعفر بن جرير الطبري .

١٧ ــ حاشية الشيخ زاده على البيضاوي . ط دار الكتب .

١٨ ــ روح المعانى للألوسى .

١٩ ــ سنن البيهقي الكبرى لأبى بكر البيهقى . ط دار الباز .

٢٠ ــ شواذ القراءة للكرمانى .

٢١ ــ صفوة التفسير للصابونى .

٢٢ ــ صحيح مسلم لمسلم حجاج أبو الحسيني القشيري النيسابوري . ط إحياء التراث العربي .

٢٣ ــ فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلانى .

٢٤ ــ فى ظلال القرآن لسيد قطب .

٢٥ ــ مجاز القرآن .

٢٦ ــ مختصر شواذ القرآن للإمام ابن خالويه .

٢٧ ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للإمام على بن أبى بكــر الهيثمــى . ط دار الريان .

٢٨ ــ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى .

٢٩ ــ مفاتيح الغيب للإمام فخــر الدين محمد بن عمر الرازي. ط دار الكتب.

٣٠ ــ معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم لابن الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي . ط مكتبة الدار المدينــة المنورة .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
١ ــ المقدمة	٥٩
٢ ــ بين يدى السورة	٦١
٣ ــ القرآن ونزوله فى ليلة القدر	٦٤
٤ ــ معاقبة مشركى قريش والتضرع بكشف العذاب	٧٥
٥ ــ قصة فرعون مع موسى عليه السلام	٨٢
٦ ــ نجاة بنى إسرائيل من العذاب	٩٣
٧ ــ إنكار المشركين للبعث	٩٧
٨ ــ طعام المشركين	١٠٢
٩ ــ جزاء المتقين	١٠٦
١٠ ــ الفهرس	١١٢

❋ ❋ ❋